

الوافي في الوفيات

يا حسين رأيت البارحة في النوم أذاك مظفر الدين وهو يقول لي : " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فما كان بعد ذلك ثلاث ليال حتى قتل .

ولما قتل الشرف هرب هو وقراسنقر وجاءا إلى جامع ابن طولون وطلعا في المئذنة واستترا فيها وقال لاجين : إن نجانا الله من هذه الشدة وصرت شيئاً عمرت هذا الجامع وكذا جرى فإنه عمره وأوقف عليه أوقافاً كثيرة وعمل فيه وطائف من الحديث والتفسير والطب وغيره .

وحكى لي عنه الشيخ علاء الدين ابن غانم C مكارم كثيرة ولطفاً زايداً وإحساناً جمّاً ومودة يرها لمن يعرفه وكذلك حكى لي عنه الشيخ فتح الدين ابن سدي الناس لما دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض و وقال : أهل العلم ينزهون عن هذا .

وأجلسه عنده أظنه على المقعد ورتبه موقعاً فباشر ذلك أياماً ثم استعفى فأعفاه وجعل المعلوم له راتباً فتناوله إلى أن مات .

وكان القاضي شهاب الدين محمود يوماً بين يديه يكتب فوق يده من الخبر على ثيابه فأعلمه السلطان بذلك قال لي : فنظمت في الحال بين يديه : .

ثياب مملوكك يا سيدي ... قد بيضت خالي بتسويدها .

ما وقع الخبر عليها بلى ... وقع لي منك بتجديدها .

قال : فأمر لي بتفصيلتين ومبلغ خمسمائة درهم فقلت : يا خوند مماليكك الجماعة رفاقي يبقى ذلك في قلبهم فأمر لكل منهم بمثل ذلك ثم صارت راتباً لنا في كل سنة عليه .

وأنشدني إجازة قصيدة بها وهي : .

أطاعك الدهر فأمر فهو ممثّل ... واحكم فأنت الذي تزهى به الدول .

واشرف فلو ملكت شمس النهار علاً ... ملتها لم يزد في سعدّها الحمل .

وانهض بعزمك فهو الجيش يقدمه ... من بأسك المنذران الرعب والوجل .

وسر به وحده لا بالجيوش وإن ... لم يحوها الأرحبان السهل والجبل .

تلقى الفتوح وقد جاءتك وافدةً ... يحثها المزعجان الشوق والأمل .

قد أرهف الملك المنصور منك على ... جيش الأعادي حسماً حده الأجل .

تهوى أسنته بيض النحور فمن ... آثارها الحمر في أجيادها قبل .

تدمى سطاها وتندى كفه كرماً ... كالغيث يهمني وفيه البرق يشتعل .

سل يوم حمص جيوش المغل عنه وقد ... ضاق الفضاء بهم واستدت السبل .

والهام تسجد والأجسام راكعةً ... والموت يقبل والأرواح ترتحل .

والبيض تغمد في الأبطال عارية ... وتنثني وعليها منهم حلل .
والخيل تحفى وتخفى في العجاج فإن ... بدت غدت وهيب الهامات تنتعل .
يخبرك جمعهم والفضل ما شهدت ... به العدى أنه ليث الشرى البطل .
وأنه خاض في هيجائها وجلا ... غمارها واصطلاها وهي تشتعل .
وصدهم وهم كالبحر غد صدموا ... ببأسه وحمى الإسلام إذ حملوا .
فمزقتهم سواه ذا يسير وذا ... عانٍ أسير وذا في الترب منجدل .
كأن أسهمه والموت يبعثها ... بين المنايا وأرواح العدى رسل .
كأن هاربهم والخوف يطلبه ... يبدو لديه مثال منه أو مثل .
فإن تنبه يوماً راعه وإذا ... أغفى جلته عليه في الكرى المقل .
وعاد والنصر معقود برايته ... والمغل ما بين أيدي خيله خول .
قد جمع ا في فيه كل مفترق ... في غيره فهو دون الناس مكتمل .
فعن ندى يده حدث ولا حرج ... اليم تم وعم العارض الهطل .
استغفر ا اين الغيث منفصلاً ... من بره وهو طول الدهر متصل .
عطاء من ليس يثني فيض راحته ... عن الندى سأم يوماً ولا ملل .
من حاتمٌ عد عنه واطرح فيه ... في الجود لا بسواه يضرب المثل .
اين الذي بره الآلاف يتبعها ... كرائم الخيل ممن بره الإبل